في الاجتماع اللغوي

نشأة اللغة الانسانية

للدكتور علي عبد الواحد وافي

امتياز الانسان باللغة ومراكزها

عرضنا في المقال السابق إلى أهم أنواع التعبير الإنساني ، فذكرنا أنها ترجع إلى أربعة ضروب :

١ — التعبير الطبيعي عن الانفعال بأمور مرئية ، كتفتح الأسارير وانقباضها ، واحمرار الوجه واصفراره ، ووقوف شعر الرأس وارتعاد الجسم وما إلى ذلك من الظواهر المرئية الفطرية التي تصحب مختلف الانفعالات

٢ — التعبير الطبيعي عن الانفعال بظواهر مسموعة ، كالضحك والبكاء والصراخ . وما إلى ذلك من الظواهر الصوتية الفطرية التي تصحب حالات الفرح والألم والحزن والسرور

٣ — التعبير الإرادي عن المعاني بأمور مرئية ، كالإشارات اليدوية والجسمية التي تستخدم مستقلة أو مع غيرها بقصد الدلالة على المعاني والمدركات

٤ — التعبير الإرادي عن المعاني بظواهر مسموعة ، وهي الأصوات المركبة ذات المقاطع التي تتألف منها الكلمات . وهذا النوع هو الذي تنصرف إليه كلمة اللغة إذا أطلقت

وسنشرح في مقال اليوم مدى مشاركة الحيوانات للإنسان في كل نوع من هذه الأنواع الأربعة

تشترك معظم فصائل الحيوان مع الإنسان في النوعين الأول والثاني من أنواع التعبيرات السابق ذكرها (التعبير الطبيعي عن الانفعالات بمظهريه المرئي والمسموع) . فانفعالات الحيوان ، جسميها ونفسيها : كالجوع والعطش والسرور والفرح والاطمئنان والحزن والاشمئزاز والغضب ... وما إلى ذلك ، يثير كل منها لدى المتلبس به طائفة خاصة من الحركات الفطرية غير المقصودة ، وهذه الحركات بعضها بصري ، أي يصل عن طريق حاسة النظر : كاتساع الحدقة وضيقها ، وبسط الأذنين وخفضهما ، والتكشير عن الناب ، ووقوف الشعر ، وانتفاخ الجسم والأوداج ، والهرب والاختفاء ... وما إلى ذلك ؛ وبعضها سمعي ، أي يتمثل في صوت يصل عن طريق الأذن : كرغاء الناقة وبغامها ، وصهيل الفرس وقبمه[1] عند نفوره من شيء وحمحمته عند الجوع أو الاستئناس ، وشحيج البغل ، ونهيق الحمار ، وخوار البقر ، وثغاء الغنم ، وزئير الأسد ، وعواء الذئب ، وتضوره وتلمظه عند جوعه ، ونباح الكلب ، وضغاؤه إذا جاع ، ووقوقته إذا خاف ، وهريره إذا أنكر شيئاً أو كرهه ، وضباح الثعلب ، ومواء الهرة ، وضحك القردة ، وصرصرة البازي ، وقعقعة الصقر ، وهدير الحمام ، وسجع القمري ، وزقزقة العصفور ، ونعيق الغراب ، وفحيح الحيات وكشيشها وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض إذا انسابت ، ونقيق الضفدع ... وهلم جراً ...[2]

وتشترك كذلك بعض فصائل الحيوان مع الإنسان في التعبير الإرادي البصري ، وهو التعبير بالإشارة . ويبدو هذا على الأخص لدى الحيوانات التي تعيش جماعات كالنحل والنمل والقردة والبقر والغنم والوعول وما إليها — فقد ثبت أن كثيراً من هذه الفصائل وغيرها تستخدم أحياناً بعض إشارات جسمية للتعبير بشكل مقصود عن بعض شئونها . ففحل الأوعال (الأيل) يستخدم في أثناء قيادة قطيعه بعض إشارات برأسه وقرونه للوقوف فيقف جميع أفراد القطيع ، وبعض إشارات للسير فيسير جميع أفراد القطيع ؛ ويستحث المتخلفات بأن ينطح كلا منها نطحاً خفيفاً . ويستخدم الأذكياء من الكلاب مع أفراد فصيلتها ومع الآدميين بعض إشارات بالرأس وغيره للتعبير بطريق إرادي عن أمور خاصة ، كأن تمر بأظافرها على الباب ليفطن أصحابها إلى وجودها فيفتحوا لها ، أو تدفع إناء طعامها برأسها للتعبير عن حاجتها إلى الغذاء ... وهلم جرا

وتستخدم كذلك فصائل القردة ، وبخاصة الفصائل العليا منها (الغوريلا والشمبانزيه والجيبون والأورانج — أوتانج) ، وفصائل النحل والنمل بعض إشارات من هذا القبيل . فقد كشف العلامة كوهلر Kœhler عن ظواهر كثيرة من هذا النوع عند فصائل القردة العليا : منها ما يعمله الشمبانزيه حينما يريد أن يرافقه آخر في طريقه ، أو يرغب أن يعطيه أحد

(١) صوت يردده الفرس من منخره إلى حلقه عند نفوره من شيء .
(٢) أنظر في هذه الأصوات وغيرها فقه اللغة للثعالبي ص٢٠٩ — ٢١٢ طبعة بيروت

زملائه شيئاً مما فى يده ، أو يطلب نداءه عن بعد : فإنه فى الحالة الأولى يحتك به بخفة ويجذبه من ذراعه محدقاً فيه ومُتقدِّماً بعض خطوات فى الطريق التى يود أن يسلكاها معاً ؛ وفى الحالة الثانية يمد يده إلى زميله مَدَّ الاستجداء ؛ وفى الحالة الثالثة يمد يده ويقبض كفه ويبسطها كما نفعل نحن فى مثل هذه المناسبة[1] . وقرر الأساتذة فرانكلين وكيربى وسبنسر وبورميستر وهوبير Franklin, Kirby, Spencer, Burmeister, Huber أن كثيراً من طوائف النحل والنمل يستخدم أفرادها ، بعضها مع بعض ، إشارات مقصودة للتعبير بها عن بعض شئونها ، وأن هذه الإشارات تتمثل فى احتكاك بعض أعضاء المتكلم أو أطرافه أو ذؤاباته بجزء من جسم المخاطب بطريقة خاصة . وقام العلامة لوبوك Lubbock فى هذا الصدد بطائفة كبيرة من التجارب ، فتبين له صدق ما ذهب إليه هؤلاء الأساتذة[2]

وأما النوع الأخير من أنواع التعبير التى أشرنا إليها أول هذا المقال ، وهو اللغة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، أى الأصوات المركبة ذات المقاطع التى تتألف منها الكلمات ، فيظهر أن الإنسان قد اختص بها من بين سائر الفصائل الحيوانية

حقاً إن بعض طوائف الحيوان تصدر عنه أصوات شبيهة فى ظاهرها بهذا النوع من التعبير ، ولكن بالتأمل فى هذه الأصوات ، يتبين أنها عارية من خصائص اللغة فى صورتها الصحيحة ، وأنها ترجع إلى فصيلة أخرى من فصائل الأصوات . وسنعرض فيما يلى لأهم ما يبدو عند الحيوان من هذا القبيل ، معقّبين على كل مظهر منها بما يبين وجوه الفرق بينه وبين اللغة الصوتية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة

(١) انظر كوهلر : ذكاء الفصائل العليا من القردة صفحة ٢٩٤ وتوابعها (الترجمة الفرنسية) L'Intelligence des Singes Supérieurs

(٢) أنظر :

Ribot: Evolution des Idées Générales, P. P. 66, 67
Lubbock: Ants, Bees, and Wasps
Romanes; Animal Intelligence

هذا ، وقد أنكر بعض العلماء وجود الاشارات ذات الدلالة المقصودة عند الحيوان . ومن هؤلاء العلامة واسمان Wasmann الذى يرى أن كل الاشارات الحيوانية التى يخيل للانسان أنها من هذا النوع هى فى الحقيقة فطرية ، وأنها لا تدل المخاطب على شىء معين ، بل تقتصر على إثارة نشاطه فى ناحية يحددها العمل الذى سيتلو الاشارة . وتابعه فى هذا أستاذى العلامة دولاكروا (انظر دولاكروا Delacroix: اللغة والفكر ص ٧٥ وتوابعها)

يرجع أهم ما يلفظه الحيوان من هذه الأصوات إلى ثلاث طوائف :

(الطائفة الأولى) أصوات فطرية الأصل يستخدمها الحيوان قاصداً بها التعبير عن بعض شؤونه: كالحمحمة التى يرددها الفرس بشكل إرادى عند رؤية صاحبه للتعبير عن حاجته إلى العلف ، والمواء الذى يلجأ إليه الهر لينبىء به عن جوعه ، والنباح الذى يلفظه الكلب قاصداً به إيقاظ أهل المنزل أو إرشادهم إلى أن شخصاً أجنبياً يحوم حول البيت ... وهلم جرا

وهذه الطائفة ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شىء وإن أشبهتها فى ظاهرها ووظائفها . وذلك أنها أصوات مبهمة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر . ومن أهم خصائص الكلام ، كما لا يخفى ، اشتماله على مقاطع وكلمات وتمييز عناصره بعضها من بعض . هذا إلى أنها فى الأصل أصوات فطرية تصحب الانفعالات ، وأن كل ما يعمله الحيوان حيالها فى هذه الحالة أن يرددها هى نفسها بشكل إرادى للدلالة على نفس الانفعالات التى تعبر عنها فى شكلها الفطرى أو للدلالة على أمور انفعالية قريبة منها (الجوع ، العطش ، الخوف ... الخ) . وأصوات هذا شأنها لا يصح عدها كلاماً ؛ لأن أهم خصائص الكلام أنه أصوات موضوعة للدلالة ، وأنه يعبر عن معان لا عن انفعالات

الطائفة الثانية : أصوات متنوعة تلفظها القردة فى اجتماعاتها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها وسائل تعبير إرادى ، وأن أفراد القردة تتجاذب بها الحديث بعضها مع بعض. وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح فى الفضائل العليا من القردة وبخاصة « الجيبون »

وهذه الطائفة كذلك ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شىء وإن أشبهتها فى ظاهرها ومناسبات استخدامها . فقد ظهر بالبحث فيها أن بعضها تعبير طبيعى عن الانفعال ، وبعضها مجرد ترديد إرادى لهذا التعبير ، وبعضها من ظواهر التداعى الآلى[1] أو العدوى الصوتية[2] أو تقليد الحيوان بطريق

(١) وذلك أن يرتبط الصوت بشىء آخر بطريقة تجعله يظهر بشكل منعكس غير إرادى كلما ظهر هذا الشىء ، وسيأتى بيان ذلك بتفصيل فى الطائفة الثالثة

(٢) تبدو ظاهرة العدوى الصوتية عند كثير من أنواع الحيوان، وتبدو كذلك عند الأطفال إذا ضمهم مكان واحد . يصوت الوليد منهم فيثير صوته أصوات الآخرين ، ويبكى أحدهم فيبكى لبكائه الباقون : أنظر تفصيل هذا بكتابى « فى التربية » ص ٧٠ وتوابعها

فطرى غير إرادى لأصوات نفسه أو أصوات غيره[1] . — هذا إلى أنها على الرغم من تنوعها ، وعلى الرغم من تشابه أعضاء النطق عنـد فصائل القردة بأعضاء النطق الإنسانية أصوات مبهمة بسيطة عارية عن المقاطع والـكلمات وغير متميزة العناصر . ومن أهم خصائص الـكلام ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، اشتماله على مقاطع وكلمات وتمييز عناصره بعضها من بعض[2]

(الطائفة الثالثة) أصوات مركبة ذات مقاطعة تلفظها بعض الطيور كالببغاء ، وما إليها من الفصائل التى امتازت أعضاء صوتها بخصائص طبيعية تتيح لها إخراج هذا النوع من الأصوات .

وهذه الطائفة كذلك ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شىء ، وإن أشبهتها فى الظاهر . وذلك أن الطائر لا يقصد بهذه الأصوات التعبير ، فهى تصدر عنه فى ثلاث حالات كلها فطرية آلية عارية بتاتاً عن هذا القصد :

الحالة الأولى : حينما يكون الطائر متلبساً بانفعال جسمى أو نفسى . وهى فى هذه الحالة من نوع التعبير الطبيعى عن الانفعالات : تصدر عن غير قصد ، ويثيرها بشكل آلىّ الانفعال المتلبس به الطائر . وإثارتها مؤسسة على الروابط الطبيعية الفطرية التى تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك وحدها بشكل آلىّ أو منعكس ، وتلفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع عند وجود حالة من الحالات الجسمية أو النفسية المرتبطة بها . فهى حينئذ من قبيل الضحك والبكاء وما إليهما من مظاهر « التعبير الطبيعى السمعى » وكل ما هنالك أن التعبير الطبيعى السمعى يبدو عند الحيوانات الأخرى فى صورة أصوات بسيطة مبهمة ، ويبدو عند هذه الطيور أحياناً فى صورة أصوات مركبة ذات مقاطع

والحالة الثانية : حينما تكون محاكاة لصوت إنسانى سمعه الطائر . وهى فى هـذه الحالة كذلك تصدر بشكل آلىّ عار عن قصد التعبير بل عن قصد المحاكاة نفسها . وذلك أن هذه الفصائل مزودة بروابط طبيعية تربط جهاز سمعها بجهاز صوتها بطريقة تجعل أعضاء الجهاز الثانى تتحرك وحدها وتلفظ بشكل آلىّ نفس الأصوات التى يحسها الجهاز الأول . فكلما وصل صوت إلى سمعها ، فى ظروف خاصة ، انبعث صداه من أفواهها[1]

(والحالة الثالثة) قد تسمع الببغاء أحياناً كلمات أو أصواتاً فى مناسبة ما فتكررها كلما حدثت هذه المناسبة أو مناسبة أخرى تشبهها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها تقصد بها التعبير عن أمر معين : فقد تسمع مثلاً أصحابها ينادون طفلاً باسمه فتكرر هذا الاسم كلما رأت الطفل أو رأت دميته أو متاعاً من أمتعته[2]

وهذه الأصوات كذلك ليست من اللغة فى شىء وإن التبست بها فى بادئ النظر ، وذلك أن الطائر لا يقصد بها ، فى الواقع ، التعبير عن أمر ما ؛ وإنما تصدر منه بشكل غير إرادى على الصورة التى تصدر فيها ظواهر « التـداعى الآلى » . فمن كثرة تكرار الـكلمة أمام الطائر ، بحضرة الشخص أو الشىء الذى تدل عليه ، يرتبط صوتها بصورة مدلولها ، فينبعث الصوت من الطائر بشكل آلى كلما ظهر أمامه المدلول أو ما يتصل به[3]

هذا ، ولا يمتاز الإنسان بهذا الصدد عن بقية فصائل الحيوان باللغة الصوتية فحسب ، بل يمتاز عنها كذلك بطائفة من المراكز المخية التى تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة : (مركز إصدار الألفاظ ، مركز حفظ الـكلمات المسموعة ... وهلم جراً) ... فقد ثبت أن هذه المراكز ليس لهـا نظير فى مخ أى فصيلة حيوانية أخرى ، حتى الفصائل العليا من القردة نفسها .

* * *

فالبحث فى نشأة اللغة يتطلب إذن دراسة موضوعين اثنين : أولهما نشأة الـكلام فى الفصيلة الإنسانية ؛ وثانيهما نشأة مراكز اللغة فى المخ الإنسانى .

وسنعرض لهذين الموضوعين فى المقالات التالية إن شاء الله

على عبد الواحد وافى
ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة السوربون

(١) سيأتى شرح هذا فى الطائفة الثالثة

(٢) أنظر فى هـذا الموضوع بحوث الأستاذ Pfungst الذى درس أكثر من مائتى قرد فى حديقة الحيوانات ببرلين ، وبحوث Bouton الذى لاحظ فى أثناء خمس سنوات أدوار نمو قرد من فصيلة بيبون، وبحوث كوهلر الذى كتب كثيراً فى القردة وبخاصة فى القردة العليا التى ألف فيها كتابه الشهير : « ذكاء القردة العليا » . وانظر كذلك ما كتبه أستاذنا العلامة دولاكروا فى كتابه : « اللغة والتفكير » ص ٧٧ وتوابعها .

(١) أنظر تفصيل هذا الموضوع بمؤلفى « فى التربية » صفحتى ٦٩ ، ٧٠

(٢) من أهم الملاحظات بهذا الصـدد ما دونه الدكتور ولـكس عضو الجمعية الملـكية بصحيفة العلوم العقلية ، عدد يولية سنة ١٨٧٩ Dr. Wilks, Journal of Mental Science

(٣) أنظر فى هذا الموضوع كتابى الأستاذ رومان « الذكاء الحيوانى » و « الارتقاء العقلى للانسان » . وانظر بحثا بهذا الصدد للعلامة ولـكس فى المجلة الفلسفية لسنة ١٨٨٠ Revue Philosophique . وانظر كذلك ما كتبه أستاذى دولاكروا فى كتاب « اللغة والفكر » ص ٢٨